المنفى

مسرحية بقلم

محمد مصطفى درويش

المشهد الأول

[منفىٰ بقدمين من الحمىٰ والتآكل، والصمت المتقيّح، والغضب اليابس يمكن أن يكون أيّ شيء: مكاناً لمسرحية! ساحة عامة في وسطها جثّة، وساعة كبيرة لتوقيت التعفّن في الجثة!

أو شجرة يلتقي تحتها كلّ شهداء العشق ويفترقون في طرفة عين... أو جحراً يرتديه الفقر كجلده... أحشاؤه مندلقة الى الخارج، ويده آثارها المزمنة كلّ ما أريق من دم وقتلى باسم الفقراء، وثوراتهم المصادرة كبطاقات التعزية في حفلة تتويج الفرح ملكاً على مملكة زائلة... أو مزروعة في الأرصفة، وعلى شفتيه ابتسامة مكابرة وتحدٍّ لا يزيل آثارها المزمنة كلّ ما أريق من دم وقتلى باسم الفقراء، وثوراتهم المصادرة كبطاقات التعزية في حفلة تتويج الفرح ملكاً على مملكة زائلة... أو يمكن أن يكون هذا المنفىٰ قبراً يدفع بلسانهِ خارج الحجارة، ليري ما في داخلهِ كم طعم الهواء والشمس والناس مرٌّ، وباعث على الغثيان والإقياء في الخارج!!

المهم أنّ هذا المنفىٰ هو الذي اختار نفسه مكاناً للمسرحية... بعد نْ أدلىٰ بكلمة هامة مفادها: أنّ هناك منافي اصطناعية وثلوجاً يتدفق في شرايينها دم حار، وتنام تحت جلدها شموس مطفأة. ولكنّ للمنفىٰ الحقيقي رائحة خاصة، كرائحة قبرٍ رطب...

ـ طفل لا يتجاوز العاشرة يطارد نهراً ميتاً من الفراشات. ورجل بهيئة جندي، لا يفقه من أصول المهنة، ومن النظام سوىٰ خبط ساقيهِ على الأرض بعنف، كأنّه يريد أن يستخرج ماء، أو يتحرّش ببركان نائم، أو زلزال مقيد.ـ]

الطفل: (ملتفتاً إلىٰ الرجل) ألم تأكل لحم فراشة في زمانك؟

الرجل: (بغير اكتراث) أكلت واحدة فقط، عندما كنت في سنّك. ولكنّني وجدت أنّ لحم الحرب أكثر إثارة، ودخولاً في الشهية خاصةً إذا كان هناك رهان على تعاطي أكبر كمية منه.

الطفل: (وقد أصيب بدهشة بالغة) أسناني لا تقطع لحم الحرب. أنتم الرجال تستطيعون أن تأكلوا بركاناً، وتشربوا غيمة وهي بكامل ثيابها دون أن يهتزّ فيكم عَصَب، أو يطاردكم إحساس بالغثيان. أمّا نحن فيكفينا جسد فراشة، وقطرة ماء.

الرجل: (وقد خبط ساقيهِ على الأرض خبطة قوية) المهم أنّنا جميعاً في اللعبة. انظر إلىٰ هذا المنفىٰ! أعني: بيتنا الحالي. لأول مرّة أساقُ إلىٰ منفىٰ في الهواء الطلق، يمشي على قدمين من الحمّىٰ وأعراض الاحتضار المستعصية.. ولكن ما الفارق؟! ما دامت أغصان الشجر سياطاً، وصوت الرّيح خطوات جلّاد، والظلمة تتمشىٰ في جلدي كالجرب... لماذا جاؤوا بك إلىٰ هنا ولم تبلغ بعد السّن القانونية؟

الطفل: (مطرقاً قليلاً) ماذا تقول؟! ومتى وضع الموت في حسبانه ما يسمىٰ: بالسّن القانونية؟... ولكن على ما أذكر كنت في طريقي إلى البيت الذي ليس أكثر من كومة من الحجارة البالية، والطين المتفسخ، وأنا أتأبط رغيفاً ساخناً سرقته لتوّي من الفرن بعد مغافلة الفران الذي يحفظ عدد الأرغفة كأطفاله... فجأة دوّت صفّارة إنذار، كأنها فحيح وحشٍ أسطوري. فتجمدت في مكاني، لا ألوي على شيء. كنت أحسّ بأنّ قدميّ تغوصان في تعب كأنّه أعراض موتٍ مداهم.. وأنا في هذه الحال، تقدّم مني مسلّح وصرخ في وجهي: لماذا تقف هكذا

كالتمثال أيها الغلام؟! ماذا في يدك؟ قلت له: رغيف. فانتزعه منيّ بقوة، فرجوته أن يسمح لي بتحسّس الرغيف قليلا، وإلقاء نظرة أخيرة عليه. فزمجر صائحاً: ألا تعلم بأنّ الخبز وقف على الجنود الذين يحلّون ضيوفاً على مدينتكم؟ ربمّا ليومٍ أو يومين أو ثلاثة... أو ربمّا مدى العمر! فأجبته: لا يا سيدي. نحن منذ أمسكنا بالخيوط الأولى لولادة العالم، وطفولة الأشياء، لم يستضفنا سوى ضيف واحد هو الجوع! وأظنّ أنّه أصبح من سكان المدينة الأصليين... تباً لهذه المدينة! الأطفال وحدهم فيها يحفظون أبجدية الصمود، ويستطيعون الوقوف على أرجلهم ولو كانت مقطوعة، ويردّدون على مسامعنا مثل هذا الكلام! أمّا الرجال... (وصمت فجأة) ماذا عن الرجال يا سيدي؟! قل: إنهّم لا يجيدون سوى النوم مع نسائهم، على مسمعٍ ومرأى من أطفالهم الصغار... قل: إنهّم يعلّمون أطفالهم كيفية احترام أطفال الجنود الغرباء ومعاملتهم كالسادة. الطفل! خذْ منه كلّ شيء حتى أمّه، ولكن لا تمسّ طفولته. إنك إن أخذتها منه تحوّل إلى وحشٍ كاسرٍ، وطائر جارح، وقنبلة موقوتة و... و... قل: إنهّم يقاسمون الكلاب نفايات طعامكم. قل: إنهّم لا يستطيعون النظر في وجوهكم. قل... قل... وصفعني صفعةً قويّة، ألقتني أرضاً. واقتادوني إلى هذا المكان الذي أعتبره بيتي، وأحاول أن أعلّم حجارته وقع خطواتي، وصهيل أصابعي المخنوق...

الرجل: (بشيء من التأثر) ولكن لماذا تسمي هذا المنفى: بيتك؟ لماذا تتعامل مع أشيائه كما لو أنهّا ملك لك؟ ألم يحظّروا عليك الاقتراب من فراشة حيّة تحت طائلة الجلد، أو ربمّا الموت كما حظّروا عليّ رفع ذراعي ولو لحك شعر رأسي، وتطهيره من عصابات القمل؟

الطفل: (دون أن يحرّك ساكناً) نعم أعرف كلّ هذا! ولكن من لا يعتبر أنّ المنفى بيته في الحاضر، لن يكون له بيت حقيقيّ في المستقبل! وأعرف أكثر من ذلك... كانت أمّي تساهرنا على المصطبة، وتطلب منا، أنا وأخوتي، أن نحدّق في السماء لننسى جوعنا. كانت تقول لنا: تخيّلوا يا صغاري أن القمر رغيف، والنجوم خراف يلمع لحمها كنصلٍ مسنون! تصوّروا أنّ لنا كلّ هذا القطيع من الخراف، ماذا سنفعل به؟ فأصرخ بصوتٍ عالٍ: أبقر بطونها، وانتزع أحشاءها، وأصنع منها حبالاً، ننشر عليه جلودنا اليابسة، وقلوبنا المنطفئة، لعلّهم يعطوننا بمقابلها بعضاً من الخبز! فتأخذ أمّي بالبكاء الصامت. لقد كانت مخيلتي خصبة، غذّاها صمتي الغريب، وعصياني الداخليّ على كلّ شيء... كانت أمّي تطلب منيّ أحياناً أن أبحث بين النفايات وبقايا الأطعمة عن حثالة شاي. وغالباً ما أعود بشيء من فتات الخبز... لم أعرف أبي. يقال: بأنّه كان رجلاً شهماً غضبت عليه الأرض، لكثرة ما شقّ في جسدها من طرقات وشوارع، لقاء مبلغ ضئيل لا يفي حتى بحاجتنا للخبز. كانت أمي تقول: مات أبوكم شهيد الخبز. كانت وصيّته: ضعوا على قبري خبزاً، بدل الورد.

ـ فجأة يتوقف الطفل عن الكلام، ويحدق في وجه الرجل قائلاً: إنّ رائحة الخيانة تنبعث منك! لقد استطعت أن أميزّها حتى في طريقة خبطك بقدميك على الأرض، كأنّ بينك وبينها ثأراً.

الرجل: (مجفلاً) ماذا تقول؟ أراهن بأنّ حاسّة للخبز اشتعلت في خلاياك، ولا يستطيع أن يطفئها طوفان من القتلى... إنّ كلماتك تقتلعني من أقصى أقاصي جسدي، من أزمنة قلقي السحيقة. إنهّا تحررني من صدمة المنفى، ورماله المحمومة وخضرته الدامية. بل تزرع في شعوراً بأنّ المنفى ليس أكثر من خفّ في قدمي! أحسّ بأنني تحوّلت بكليّتي إلى ذاكرةٍ مصابةٍ بجرب الاستحضار ونبش الماضي. صحيح! لقد ارتكبت الخيانة مرتين، خيانتي للحبّ، وخيانتي للخبز. وخلت بأنّ المنفى كفيل بشفائي منها، وقادر أن ينسيني كلّ شيء حتى رنّة صوتي، ولون عيوني، ولكن كمن يحاول نسيان امرأةٍ بامرأة أخرى.

أيها الغلام! اغربْ عن وجهي. اتركني لصمتي، إنّ وَحْشَ ذاكرتي يمزّق قيوده بأسنانه الحادة، ليطحن بها كلّ حجارة المنفى. اغربْ عن وجهي، وعدْ إلى مطاردة فراشاتك الميتة!

المشهد الثاني

[المنفى: ثانية، وقد اختار أن يكون ساحة عامة. الوقت: البوح الأول للصباح. الشمس تبدو للناظر وكأنها نسيت جزءاً كبيراً من جسمها في جحرها الليلي، أو أنهّا مريضة.

الناس يلزمون بيوتهم احتجاجاً على تصرفها هذا... الجميع من ثقوب أبوابهم المسلولة بصوتٍ واحدٍ: كان يجب أن تحضر كاملة، ولو على نقّالة! لماذا تستخّف بنا بهذا الشكل؟

ومن ضوء عيوننا أصبح لنا هذه القامة المديدة!

ـ عامل على وشك الوصول إلى منتصف الساحة. والطفل يقف بجوار جثة مجهولة مغطّاة بالأوساخ والقاذورات.]

العامل: (بلهجة حياديّة) ماذا تفعل هنا بجوار تلك الكومة الوسخة؟ يبدو أنّك قطعت أميالاً من اللعب بالنار، حتى وصلت إلى هذه الساحة التي اعتادت أن تكون وحيدةً طوال النهار. حتى أنا لا تتحمل وجودي إلاّ لبضع دقائق، وبعدها...

ـتزوغ عيناه، وتأخذ شفتاه بالرّجفان العصبّي ـ

الطفل: (بلهجة آمرة) بعدها... ماذا؟ كلّكم هكذا! مرضى ذاكرةٍ حَوّلتكم إلى نعاج، تنتظر ساعة الذبح وكأنّها هبة سماوية! حتى نْهَرُ منفاكم بدأ يضيق بكم، ويتساءل: هؤلاء الغرقى بلا ثمن، هل ينتظرون أن يتبخّر مائي ليخرجوا! بعدها... ماذا؟!

أيها العامل الذي يخجل من ثيابهِ الملطخة بالشحوم والزيت والأتربة، ومن عروق يديه النافرة، كأنها صرخات احتجاج! أكمل... أكمل.

العامل: (وقد انذهل من مواجهة الطفل له بهذا الشكل) أنا لا أخجل من وضعي. بل أحاول تحويل دقائق وجودي في هذه الساحة إلى إقامةٍ دائمة، ولكن... الجنود الغرباء أيها الطفل! لقد أصبحت بالنسبة لهم، لكثرة ما اعتقلوني، تسلية يوميّة، وجزءاً لا يتجزأ من لهوهم. لا أطيق هذه الحياة، بينما كلّهم في البيوت يعتصرون الحلم، فلا يقطر إلّا دمعاً وخنوعاً. حتى أطفالهم أدركوا ذلك فأخذوا ينتحرون كرجال خبروا الحياة حتى الموت. الأطفال وحدهم، في هذه المدينة، هاجس الجنود الغرباء المؤرق. تَصوّرْ أحياناً إذا التقوا بطفلٍ مصادفةً في أحد الشوارع، يتعمدون تجاهله، أو يطلقون الرصاص عليه في الحال.

الطفل: (بصوت ينمّ عن ثقةٍ وفهمٍ مسبق لكلّ ما تفوّه به العامل) سألتني في البداية عن وقوفي بجوار هذه الكومة الوسخة، كما أسميتها! هذه كومة من لحم وعظم إنسان.

العامل: (باستغراب) ماذا تقول؟ منذ زمن بعيد لم أرَ جثّة في شارع أو ساحة عامة سوى لطفلٍ أو طائر! وجودها يعني الكارثة. يعني أنّ هناك من يموت من الرّجال دون أن يأخذ اذناً من الموت. يعني أن الشمس ليست مريضة، ولا فاقدة الذاكرة، وإنّما آثرت أن تسجن الناس في بيوتهم، التي عجزت عن مقاومة القذارة فيها، على أن تشي بمكان الجثة، خاصة وأنها جثّة رجل!

الطفل: لا أظنّ! الجميع على علمٍ بالجثة. ولكنهّم أغلقوا على أنفسهم الأبواب، لكي لا يكون لهم رأي فيها.

العامل: (وقد اقترب أكثر) ألست جائعاً؟

الطفل: (وكأنه فهم قصده) لن نقترب من الجثة. لن نمسّها بأذى، ولو حَوّلنا الجوعُ إلى سراب من اللحم والعظام ولكن لم أسألك: هل تسكن قريبا من هذه الساحة؟

ولكن لم أسألك: هل تسكن قريباً من هذه الساحة؟

العامل: (بهدوء غريب) نعم... ولكن غالباً ما أقضي الليل هنا، ودقائق من النهار. فالبيوت استحالت هياكل عظمية، وسكانها أشباحاً، تنبحهم حتى الحجارة.

الطفل: (بجدية) لنأخذها بعيداً عن الساحة، فقد يظنّها ضيوفنا جثّة أحد جنودهم!

العامل: (باستنكار شديد) لا... لنبْقِهَا في مكانها، فقد تنهض بين لحظةٍ وأخرى! ولنخرج تلك الجثث المتعفّنة من البيوت، فحتى الموت يعجز عن معرفة سرّ تعفّنها السريع
[فجأة تنهض الجثّة، وتأخذ شكلَ إنسانٍ بلحمهِ ودمهِ].

الطفل: (صارخا) إنني أعرف صاحبها. إنّه رجل المنفى!.

الرجل (بثبات ظاهر) كفاك صراخاً أيها الطفل! هل اكتشفت قارّة بالتعرّف إليّ؟ لقد جئتُ جثّةً إلى هنا، لأكفّر عن خيانتي للحبّ والخبز...
فلتهدرْ صلواتنا كالسّيل في الشوارع، والساحات العامة.
لتشتعلْ في لحمنا شمسٌ لا تمرض، ولا تفقد ذاكرتها!
[فجأة يتحوّل نْهَرُ الفراشات الميت إلى مظاهرة عارمة، تطالب برأس المنفى، والمتاجرين به كالخبز.]

دمشق

مؤلفات حنا مينه

- المصابيح الزرق
- الشراع والعاصفة
- الثلج يأتي من النافذة
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- ناظم حكمت : السجن ، المرأة ، الحياة
- المستنقع
- الابنوسة البيضاء
- ادب الحرب (بالاشتراك مع د. نجاح العطار)

دار الآداب